وهل الإيمان إلا الحب ؟

(١٢)

حب
إكرام الضيف

الدكتور
محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

مِنْ عَادَاتِ العَرَبِ

وَلمَّا وَصَلَ الوَفْدُ إلى الأُرْدُنِّ ، أَرادُوا أَن يَرْتَاحُوا قليلاً ، فَأَعْلنَ الأُسْتَاذُ (زَين العَابِدين) عَنْ اسْتِرَاحَةٍ مُدَّتُهَا عِشْرُونَ دَقِيقَةً... وَتَوقَّفَ البَاصُ عَلى حَافَّةِ الطَّرِيقِ ، وَنَزَلَ الشَّبابُ والشُّيوخُ وَالأَسَاتِذَةُ ، وَحَمَلُوا مَعَهُمْ بعضَ الأَغْراضِ ، حَيثُ هُنَاكَ نَبعَةُ مَاءٍ وَحَولَهَا الأَشْجَارُ..

وَلمَّا تَقَدَّمُوا بِاتِّجاهِ النَّبعَةِ إذا بِرجُلٍ يَخرُجُ مِن دَاخِلِ الحَديقَةِ وَيقولُ لَهُمْ: أَهْلاً وَسَهلاً

بِالضُّيوفِ. يَا مَرْحَباً بِكُم.. عَلى الرَّحْبِ وَالسَّعةِ.

وَلمَّا وَصَلوا إليهِ.. سَلَّموا عَليهِ.. وَاصْطَحَبهُم إِلَى بَيتٍ مِن الشَّعْرِ إلى جِوَارِ نَبْعَةِ المَاءِ.. وَعَلىَ الفَورِ قَدَّم لهُم القَهْوَةَ العَربيَّةَ بالهيْلِ ، وَانطَلقَ إلى حَظِيرَةِ الأَغْنَامِ فَأَتَى بِغَنَمةٍ كَبِيرَةٍ وَذَبَحَهَا.. وَهُوَ يَقُولُ: أَهْلاً وَسَهْلاً.. يَا مَرْحَباً بِالضُّيوفِ الأَكارِمِ..

وَنَظَرَ الشَّبابُ إلى الشَّيخِ (يَحْيَى) وَسَأَلُوهُ باسْتِغْرابٍ وَتَعجُّبٍ: مَا هَذَا الذي يَقُوْمُ بِهِ هَذا الرَّجُل العَرَبيّ؟

وَرَاحَ الشَّيخُ (يَحْيَى) يَقُصُّ عَليهم قصَّةً مِن قَصَصِ العَرَبِ في الجَاهِليَّةِ ، فَقَالَ: كَانَ أَجْدَادنَا العَرَبُ يَعْتَبِرُون الكَرَمَ والسَّخَاءَ والضِّيافَةَ من الأَخْلاقِ الحَمِيدَةِ السَّاميةِ ، واشْتَهَر مِنهُم

أُناسٌ ، حَيثُ رُويتْ عَنهُم حِكَاياتٌ عَجِيبَةٌ ، كَحَاتِم الطَّائيِّ وَأمثَاله.

فَقَالَ الشَّابُّ (مُعْتَزٌّ): أَلاَ تَقُصّ عَلينَا قِصَّةً يَا شَيْخَنَا..؟

فَقَالَ الشَّيخُ: سَأَحْكِي لكُم حِكَايةً لمْ تَحدثْ مَعَ حَاتم الطَّائيِّ ، إِنَّما حَدَثَتْ مَعَ وَاحِدٍ مِنَ الكُرَمَاءِ أَيْضاً هُوَ (قَيسُ بنُ سَعْدٍ) ، يَقولُ فِيهَا:

نَزَلنَا بِالبَادِيَةِ عَلى امْرأَةٍ ، فَجَاءَ زَوجُهَا ، فَقَالتْ لَهُ: إِنَّهُ نَزَلَ بنَا ضِيْفَان ، فَجَاءَ بِنَاقَةٍ فَنَحرهَا ، وَقَالَ: مَا شَأْنكُم؟ فَلمَّا مِنَ الغَدِ جَاءَ بِأُخْرى فَنَحرَهَا ، وَقالَ: مَا شَأْنكُم؟

فَقُلنَا: مَا أَكَلنَا مِنَ التي نُحِرَتِ البَارِحَةَ إلا القَلِيل.

فَقَالَ: إِنِّي لا أُطْعِمُ ضِيفَانِي البَائِتَ!

فَبَقِينَا عِنْدَهُ أَيَّاماً ، وَالسَّماءُ تُمْطِرُ ، وَهُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ.

فَلمَّا أَرَدْنَا الرَّحِيلَ ، وَضَعْنَا مِئَةَ دِينَارٍ فِي بَيْتِهِ ، وَقُلنَا لِلمَرأَةِ: اعتَذِري لنَا إِليهِ ، ومَضَينَا ، فَلمَّا ارتَفَعَ النَّهارُ إِذا بِرَجُلٍ يصِيحُ خَلفَنَا: قِفُوا أَيَّها الرَّكْبُ اللئامُ ، أَعطَيتُمونَا ثَمَنَ قِرانَا ـ أَي ضِيافَتنَا لكُم ـ؟!

ثُمَّ إِنَّهُ لَحِقَنَا وَقَالَ: خُذُوهَا وإِلاَّ طَعنتُكُمْ بِرُمْحِي هَذا.

فَأَخذنَاهَا وانصَرفْنا!!

وَاعتَدَلَ الأُسْتَاذُ (نُورُ الهُدى) وَقَالَ: وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَقصَّ عَليكُم قِصَّةً جَرَتْ مَعَ حَاتِمٍ الطَّائِيِّ ، تَرْوِي زَوجَتهُ (مَاوِيةُ) فَتَقولُ:

أَصَابَتْنَا سَنَةٌ اقْشَعرَّتْ لهَا الأَرْضُ ، وَاغْبَرَّ

أُفُقُ السَّماءِ ، وَراحَتِ الإبِلُ حُدباً حَدَابير[1]، وَضنَّتِ المَراضِعُ عَلى أَولادِهَا ... وَأيقنَّا الهَلاكَ ، وَذَاتَ لَيلةٍ بَارِدةٍ ، إذا بالأَولادِ يَتَصَايَحونَ مِن شِدَّةِ الجُوعِ ، فَقُمتُ أَنا وَحَاتِم إلى الصِّبيَةِ ، وَرُحنَا نَقُصُّ عَليهم القصَصَ حَتَّى نَامُوا!!

فَلمَّا كَانَ اللَّيلةَ ، إذ شَيءٌ قَدْ رَفَعَ طَرَفَ البَيْتِ ثُمَّ عَادَ ، فَقَالَ حَاتمٌ: مَنْ هَذا؟ قَالَتْ: جَارَتُكِ فَلاَنَة ، أَتَيتُ مِن عِنْدِ صِبيَةٍ يَتَعَاوَون عُواءَ الذِّئابِ ، فَمَا وَجَدتُ مُعوَّلاً إلاَّ عَليكَ يا أَبا عَديٍّ.

فَقَالَ حَاتمٌ: أَعْجِليهِم ، فَقَدْ أَشْبَعَكِ اللهُ وَإيَّاهُم!

---

(١) أي: أصبحت ضامرة من شدة الجوع!!

فَأَقْبلَتِ الْمَرأَةُ تَحْمِلُ اثْنَيْنِ ، وَيَمْشِي بِجَانبِهَا أَرْبَعة ، كَأَنَّها نَعْامَةٌ حَوْلَها رِئَالُهَا[1].

فَقَامَ حَاتمٌ إِلى فَرَسِهِ ، فَذَبَحَهُ وَسَلَخَهُ ، وَنَادَى مَنْ حَولَهُ: هُبُّوا أَيُّها القَوْم ، عَليكُم بالنَّارِ!

فَاجْتَمَعُوا ، والتَفَعَ فِي ثَوْبِهِ ، وَجَلسَ فِي نَاحيةٍ يَنْظُرُ إِلينَا ، فَوَاللهِ لمْ يَذقْ مِنْهُ قطْعةً وَاحِدَةً ، وَإِنَّه أَحْوَجُ إِليهِ منَّا!!

إِكْرامُ الضَّيفِ منْ شُعَبِ الإِيمَانِ

قَالَ الشَّيخُ (مُصْطَفَى):

وَلمَّا جَاءَ الإِسْلامُ اعْتَبرَ إِكْرامَ الضَّيفِ شُعْبةً مِن شُعَبِ الإِيمَانِ ، مِصْدَاقُ ذَلِكَ مَا وَرَدَ

(١) الرئال: أولاد النعام.

فِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ: قالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ فَليُكْرِمْ ضَيفَهُ».

وَبِالتَّالِي اعْتَبَر الإِسْلاَمُ مَنْ لَمْ يُكْرِمْ ضَيفَهُ شَحِيحاً بَخِيلاً ، وَبالتَّالِي فَهوَ كَمَا قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «بِئْسَ القومُ لا يُنْزِلونُ الضَّيفَ».

وَقالَ أَيضاً: «لاَ خَيرَ فِيمَن لاَ يَضِيفُ».

وَرَوَى البَيْهقيُّ عَن عَمْرو بنِ دِينَارٍ قَالَ: مَرَّ النَّبيُّ ﷺ بِرَجُلٍ ذِي عدَّة من الإِبلِ وَهيَ ستُّون أوَ سَبْعُون أَو تسعُون إِلى المئةِ مِن إبلٍ وَبَقَرٍ وَغَنمٍ ، فلمْ يُنزلْهُ ولمْ يُضَيِّفْهُ.

ومَرَّ عَلى امْرأَةٍ لهَا شُوَيْهَاتٌ فَأَنزلتْهُ وَذَبحَتْ لَهُ.

فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «انْظُروا إِلى هَذا الذي لَهُ

عكرٌ مِنَ الإبلِ وَالبَقَرِ وَالغَنَمِ ، مَرَرْنَا بِهِ فَلَمْ يُنزِلْنا ، وَلَمْ يُضِفْنَا ، وَانظُروا إلى هَذهِ المَرأةِ إنَّما لهَا شُوَيهَاتٌ أَنزَلَتْنَا وَذَبحتْ لَنا ، إنَّما هَذهِ الأَخلاقُ بيدِ اللهِ ، فَمَنْ شَاءَ أَن يمنحَهُ مِنهَا خُلقاً حَسناً مَنَحَهُ».

فَرَفَعَ الشَّابُّ (حَسَن) يَدَهُ وَقالَ: وَأَنا أَحفَظُ قِصَّةً جَرتْ فِي العَهدِ النَّبويِّ ، وَأَنزلَ اللهُ فِيهَا قُرآنا يُتلَى إلى يَومِ القِيامَةِ.

فَقَالَ الشَّيخُ (مُصْطَفَى): هَاتِ مَا تَحْفَظُ يَا حَسَن.

فَقَالَ: فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ قَالَ: جَاءَ رَجلٌ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إنِّي مجْهُود ـ أَيْ: جَائِعٌ وَمُتْعبٌ ـ ، فأرسلَ الرَّسولُ إلى بَعضِ نِسَائِهِ ، فَقَالتْ: لاَ وَالذي

بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا عِندِي إلاَّ مَاء ، ثُمَّ أَرسلَ إِلى الأُخْرَى ، حَتَّى قُلنَ كُلهنَّ مِثل ذَلِكَ!!

فَقَالَ الرَّسولُ: «مَن يَضِيف هَذَا اللَّيلَة رَحِمَهُ اللهُ؟».

فَقَامَ رَجلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ ، فَانطَلَقَ بِه إِلى رَحْلِهِ فَقَالَ لامْرأَتِهِ: هَلْ عِنْدَكِ شَيءٌ؟

قالت: لا إلاَّ قُوت صِبْيانِي.

قَالَ: فَعلِّليهِم بِشَيءٍ ، فَإِذا أَرادُوا العشَاءَ ، فَنوِّمِيهِم ، فَإِذا دَخَلَ ضَيفُنَا فَأَطْفِئي السِّراجَ وَأَرِيهِ أَنَّا نأْكُل!

قَالَ: فَقَعدُوا وَأَكلَ الضَّيفُ وَباتَا طَاوِيَيْنِ ، فَلمَّا أَصْبحَ غَدا عَلى رَسولِ اللهِ ﷺ.

فَقَالَ: «قَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيفِكمَا».

وَأَنزلَ اللهُ تَعالَى قَولهُ:

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

[الحشر: ٩].

شَيءٌ عَجِيبٌ

وَأَشْعلَ الرَّجلُ الأُردُنيّ النَّارَ.. وَرَاحَ يَشْوِي اللَّحمَ وَيُنَادِي: هَيَّا يَا أَيُّها الضُّيوفُ.. تَعالَوا إِلى الطَّعامِ عَلى بَركةِ اللهِ..

وَتَنَاولَ الضُّيوفُ الطَّعامَ.. وَبَعدَئذٍ رَاحُوا يَشْرَبُون الشَّايَ، فَقَالَ الشَّابُّ (مُهْتَدِي): وَأَنَا أَحفَظُ حِكَايةً رَائِعةً سَمِعتهَا مِن خَطِيبِ المَسْجِدِ، وَهِيَ:

خَرَجَ الحَسنُ وَالحُسَينُ وَعبدُ اللهِ بن جَعْفَرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُم حُجَّاجاً ، فَفَاتتهُم أَثقالهُم فَجَاعُوا وَعَطشوُا ، فَمرُّوا بِعجُوزٍ في خِباءٍ لهَا ، فَقَالوا: هَلْ مِن شَرابٍ؟ قَالتْ: نَعَم ، فَأَناخُوا إِليهَا ، وَليسَ لهَا إلاَّ شُوَيْهةٌ فِي كسرِ الخَيْمَةِ ، فَقَالت: احلبُوهَا وَامتَذقُوا لبنَهَا ، فَفَعلوا ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالُوا لهَا: هَلْ مِنْ طَعَامٍ؟

فَقَالتْ: لاَ إلاَّ هَذهِ الشَّاة فَلْيذبَحْهَا أَحَدكُمْ حتَّى أُهيِّئَ لَكُم مَا تَأْكلُون ، فَقَام أَحَدهُم فَذَبحهَا وَكَشَطهَا ، ثُمَّ هيَّأَت لهُم طَعَاماً ، فَأَكلُوا وَأَقامُوا حتّى أَرادُوا.

فَلمَّا ارتَحَلُوا قَالُوا لَها: نَحنُ مِن قُرَيشٍ نُريدُ هَذا الوَجْهَ ، فَإِذا رَجَعنَا سَالِمينَ فَألمِّي بِنَا ، فَإِنَّا صَانِعونَ إِليكِ خَيْراً.

ثُمَّ ارْتَحَلوا ، وَأقبلَ زَوجُهَا فَأَخبرتْهُ بِخَبرِ القَوْمِ والشَّاةِ ، فَغَضِبَ الرَّجلُ ، وَقالَ: وَيحَكِ تَذْبَحِينَ شَاتِي لِقَومٍ لا تَعْرِفِينهُم ، ثُمَّ تَقُولِينَ نَفرٌ مِن قُرَيشٍ؟!

وَبَعدَ مُدَّةٍ أَلجَأَتهمَا الحَاجَةُ إِلى دُخُولِ المدينةِ ، فَدخَلاهَا ، وَجعَلا يَنْقُلانِ البَعْرَ وَيبيعانِهِ وَيَعيشانِ بِثَمَنِهِ ، فَمرَّتِ العَجُوزُ فِي بَعضِ سِكَكِ المَدِينَةِ ، فَإِذَا الحَسنُ بنُ عَليٍّ عَلى بَابِ دَارٍ جَالسٌ فَعَرفَ العَجُوزَ ، وَهِيَ لَهُ مُنْكِرَةٌ ، فَبعثَ إِليهَا غُلامَهُ فَدعَاهَا ، فَقالَ لَهَا: يَا أَمةَ اللهِ ، أَتَعْرِفِينَنِي؟

قَالتْ: لاَ ، قَالَ: أَنا ضَيفُك يَومَ كَذا وكَذا ، قَالتْ: بِأَبِي أنتَ وَأُمِّي ، ثُمَّ أَمرَ فاشْتَرى لَهَا مِن شِيادِ الصَّدَقَةِ مِئَةَ شاةٍ ، وَأَمَر لها بِمِئةِ دِينارٍ ، وَبعَثَ بِهَا مَع غلامِهِ إِلى أَخيهِ الحُسَين ، فَقالَ

لَهَا الحُسينُ: بِكَم وَصَلكِ أَخِي؟ قَالتْ: بِمئةِ شَاةٍ وَمئةِ دِينَـارٍ ، فَأمَر لهَا الحُسينُ أَيضاً بِمثلِ ذَلِكَ ، ثُمَّ بعَثَ بِهَا مَعَ غُلامهِ إلى عَبْدِ اللهِ بنِ جَعْفَـرٍ، فَقَـالَ لهَـا: بِكَـم وَصَلـكِ الحَسَـنُ والحُسَين ؟

قَالتْ: بِمئتي دينارٍ ، وَمِئَتي شَاةٍ ، فَأَمرَ لهَا عَبدُ اللهِ بِمئتَي دِينَارٍ وَمِئتي شَاةٍ ، وَقالَ لهَا: لوَ بَدأْتِ بِي لأَتعبتهمَا!

فَرَجَعتِ العَجُوز إلى زَوْجِهَا بِأَربعمئةِ دِينَارٍ ، وَأَربعمئةِ شَاةٍ!!

إلى رِحَابِ الجَنَّةِ

وَنَظَرَ الشَّيخُ (يَحْيَى) إلى الرَّجُلِ الكَرِيمِ وَقَالَ:

هَنيئاً لكَ مَا فعلتَ ، فاسْمَعْ هَذهِ البشَارةَ مِن فَمِ سَيِّدنا رَسول اللهِ ﷺ:

«مَنْ أَقامَ الصَّلاةَ ، وآتى الزَّكَاةَ ، وحَجَّ البيتَ ، وَصَام رَمضَانَ ، وَقَرى الضَّيفَ ، دَخَل الجَنَّةَ».

وَاسْتَأذنُوا بِالانْصِرافِ ، فَمَشَى الرَّجُلُ الكَرِيمُ مَعَهُم وَهوَ يقولُ: قَالَ الرَّسولُ ﷺ: «إنَّ مِن السنَّةِ أَن تُشيِّعَ الضَّيفَ إلى بَابِ الدَّارِ»..

وآخرُ دَعْوانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمين